الصباح الإسلامية
09
العدد 2353 - السنة الثامنة
الخميس 20 ربيع الأول 1437 - الموافق 31 ديسمبر 2015
Thursday 31 December 2015 - No.2353 - 8th Year
إعداد : ياسر السيد

تعرضت لمحاولات التغييب والخنق ولكنها عبرت كل ذلك وبقيت خالدة

العربية .. لغة القرآن

إن القرآن الكريم هو الذي وحّد اللهجات العربية في بوتقة واحدة ، فتحصنت اللغة العربية ، ثم جاء المغول ليخنقوها ، وقذفوها في مياه دجلة ، إلا أنها لم تختنق ولم تغرقها مياه دجلة العارمة ، فهبت اللغة العربية منتصبة على قدميها .

وجاء (نابليون) يريد محوها ودفنها ، فلم يستطع وأعلنت العربية عن وجودها .

وجاءت حركة (الاتحاد والترقي) في العهود الأخيرة من عمر الخلافة العثمانية ، يريدون الكيد منها ، فباءوا بالفشل الذريع.

وعقدت مؤتمرات (باريس) لمحو اللغة العربية من أرض الجزائر ، فما استطاعوا أن يطفئوا نار حقدهم ، هذه اللغة العظيمة، أي شيء أكسبها هذا الخلود والبقاء ، لا شك

ولا ريب إنه كتاب الله (القرآن الكريم) .

ولهذا نفهم كلام العرب الذي قالوه قبل عشرات القرون ، بينما الفرنسيون والإنكليز وغيرهم لا يستطيعون أن يفهموا ما كتب قبل أربعمائة عام ، إلا بجهد جهيد ، وبالاستعانة بالمعجمات لحل غموض اللغة التي يسمونها (الكلاسيكية) أو (القديمة) بعد أن تغيرت قواعدها ، على عكس العربية .

لقد أكد القرآن الكريم حقيقة عروبته في آيات كثيرة ، منها قوله تبارك وتعالى:

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)[1] . وقوله :(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون) [2]، وقوله أيضاً :(كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) [3].

ومع تأكيد القرآن هذه الحقيقة فقد نفى أن يكون فيه لسان غير عربي .

قال الإمام الشافعي :

(فأقام [الله سبحانه وتعالى] حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه - جل ثناؤه - كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه)[4]:

فقال الله تعالى :(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)[5]، وقال الله تعالى :(ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي)[6].

فالقرآن الكريم لم يخرج من مألوف العرب في لغتهم العربية ، من حيث المفردات والجمل، فمن حروفهم تألفت كلماته ، ومن كلماته ركبت جمله ، ومن قواعدهم صيغت مفرداته، وتكونت جمله ، وجاء تأليفه ، وأحكم نظامه ، فكان عربياً جارياً على أساليب العرب وبلاغتهم ، ولكنه أعجزهم بأسلوبه وبيانه ونظمه الفذ ، إلى جانب نفوذه الروحي ، وأخباره بالغيوب ، ومعانيه الصادقة ، وأحكامه الدقيقة العادلة ، والصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ، وهو الكتاب الوحيد الذي تحدى منزله - جل جلاله - البشر كافة أن يأتوا بمثله .

كما يجب علينا أن نلاحظ أن القرآن الكريم ، لم يعبر بكلمة (لغة) ، وإنما عبر بـ(اللسان) بمعنى اللغة .

قبل نزول القرآن الكريم كان العرب يتكلمون اللغة العربية بالسليقة والسجية ، فصيحة معربة ، سليمة من اللحن والاختلال ، ولم تكن لها قواعد مدونة ، والنحو المدون لم يظهر حتى ظهر نور الإسلام ، ونزل به القرآن ، فخرج جيل الفتح الأول داعين إلى توحيد الله، مبشرين بدينه، حاملين كتابه بلسان عربي مبين ، فانتشرت العربية بانتشار الإسلام ، وكتب العلماء المسلمون من غير العرب أكثر من علماء العرب ، وبذلك أصبحت العربية عالمية مقدسة ، ومنتشرة في كثير من أقطار الأرض .

لقد كان للغة العربية - بفضل الإسلام - أنصار ومحبون من غير العرب، وكان لها منهم علماء وأعلام عرّبهم الإسلام ، حتى كان منهم أصحاب المؤلفات الرائعة ، في قواعد اللغة العربية وفي بلاغة القرآن الكريم.

بل إن أعظم كتاب في النحو العربي هو كتاب سيبويه الفارسي.

ومن أعظم كتب العربية وفقهها (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني الرومي اليوناني.

وأشهر وأوثق مرجع لغوي في العربية (القاموس المحيط) لأبي طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي وهو هندي.

وأشهر كتب إعجاز القرآن الكريم وأفضلها ، مؤلفوها من غير العرب ، نذكر منهم :

أحمد بن محمد الخطابي البستي الأفغاني.

وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني.

وعبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني.

وغيرهم كثير ، ألفوا الكتب في مختلف الدراسات القرآنية، وفروع العربية وآدابها[7].

وهكذا صاروا مضرب الأمثال حتى أصبحنا إذا أردنا مدح أحد من علماء العرب ، الحقناه بأحدهم وشبهناه به فقلنا : فلان سيبويه عصره ، أو زمخشري زمانه .

لقد أصبحت اللغة العربية - لغة الدين الحق الذي يؤمن به مئات الملايين من الناس خارج الوطن العربي ، ويفاخرون عليها ، ويفضلونها على لغاتهم الأولى ، ويرون أنها أفضل اللغات وأحقها بالحياة ، وهي أقوى وسيلة من وسائل الترابط والوحدة بين العرب أنفسهم ، وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمون بها في البلاد الإسلامية ، وهي أقوى من رابطة النسب والدم ، لأن الدم لا يمكن استصفاؤه بسبب التصاهر والتزاوج ، والعربية بما تحمله من رسالة هذا الدين وكتابه ، هي أساس العلاقات الحضارية والثقافية والاجتماعية بين العرب والمسلمين ، بها تتوحد أساليب التفكير والتعبير ، ويمكن التفاهم والتعاون على البر والتقوى ، ونصرة الإسلام ، وهي الحصن الحصين الذي يحول دون احتلال عقول أبنائها بآراء وأفكار وافدة .

ولقد بلغ من حب السلف الصالح للغة العربية ، وإعجابهم بعبقريتها ، أن قال أبو الريحان البيروني :

(والله لأن أهجى بالعربية أحب إلي من أن أمدح بالفارسية) [8].

تلك من بعض حكمة الباري - جل جلاله - الذي أرسل كل رسول بلسان قومه ، ولغة أمته التي بعث إليها ، لدعوتها إلى الله باللسان الذي تفهم به وليكون لبيان الرسول أثر وتأثير ، قال الله تبارك وتعالى :(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) [9] .

ولما كانت رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتمة وعامة ، فقد وجب على جميع الناس والأمم الإيمان به واتباعه ، ولا يكمل دين المرء إلا بتلاوة شيء من الكتاب العربي الذي أنزله الله تعالى ، مما يجعل لغته لغة اتباعه وأمته ، وأمة العروبة ليست أمة بالنسب والدم فقط ، وإنما من تكلم العربية فهو عربي اللسان والثقافة والانتماء ، وقد كان العرب يقولون : كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها ، فهم عرب[10].

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، فما بال هؤلاء ؟

فقام معاذ بن جبل ، فأخذ بتلابيبه ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه ، حتى دخل المسجد ثم نودي : إن الصلاة جامعة ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد :

أيها الناس إن الرب رب واحد ، والأب أب واحد ، والدين دين واحد ، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم ، إنما هي لسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي ، فقام معاذ بن جبل فقال : يم تأمرنا في هذا المنافق ؟

فقال : دعه إلى النار ، فكان قيس ممن ارتد فقتل في الردة[11].

إذن العربية ليست بالولادة ولا بالنسب والسلالة ، وإنما بالكلام ، فمن تكلم العربية فهو عربي !

ولذلك استطاعت العربية أن تجمع تحت رايتها أمماً وأنساباً وأعراقاً ودماء شتى ممن يدينون بالإسلام .

ثم إن علوم العربية الرئيسية ، وهي علم اللغة والنحو والصرف والبلاغة بأقسامها الثلاثة ، الفضل الأول في نشأتها ونموها واستمرارها يرجع إلى القرآن الكريم ، وحرص المسلمين الشديد على المحافظة عليه ، والدفاع عنه ، وبيان إعجازه ، ولما فزع العرب من انتشار اللحن في العربية ، هبوا لتقنين العربية بابتكار النحو لدرء الخطر عنه ، وتعليم الداخلين في الإسلام العربية مقعّدة ومبوّبة ، ثم كان ابتكار نقط الإعراب الذي تطور إلى الشكل المعروف (الفتحة والكسرة والضمة والسكون) .

ولقد اشترط علماء الإسلام على من يريد تفسير القرآن الكريم ، أن يكون واسع العلم بالعربية وأساليبها وعلومها وعلوم الإسلام التي منها علوم القرآن ، لاستنباطها منه ، ونشأتها في رحابه ، واستمرار الحياة لها بحفظه ، قال مجاهد : (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب)[12].

وقال الإمام مالك :(لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا) [13].

وقال الإمام الشافعي : (فإن قال قائل : ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟

فالحجة فيه كتاب الله ، قال الله تعالى :(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)[14].

فإن قال قائل : فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة ، وإن محمد بعث إلى الناس كافة ، فقد يحتمل أن يكون بُعث بلسان قومه خاصة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه ، ويحتمل أن يكون بُعث بالسنتهم ، فهل من دليل على أنه بُعث بلسان قومه خاصة دون السنة العجم ؟؟

فإن كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض ، فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع ، وأولى الناس بالفضل باللسان ، من لسانه لسان النبي ، ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان في حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله عليهم اتباع دينه ، وقد بين الله ذلك في أكثر آية من كتابه ، قال الله تعالى :(وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) [15] وقال:(وكذلك أنزلناه حكما عربيا)[16] ، وقال :(وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها)[17].

وقال الشافعي أيضاً : (وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها)[18].

واللغة العربية أيضاً ، لغة الغنى والثراء والسعة ، قال الإمام الشافعي : (لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها)[19]. فلا يمكن لأحد إحصاء جميع الألفاظ العربية ، مهما بلغ في اللغة شأواً بعيداً ، وفي اللغة العربية كثير من الأسماء لمسمى واحد ، كأسماء الأسد والحية والعسل ، وممن ألف في المترادف ، العلامة مجد الدين الفيروز أبادي صاحب (القاموس) ، ألف فيه كتابا سماه : (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى الوقف) ، وأفرد خلق من الأئمة كتبا في أسماء أشياء مخصوصة ، فألف ابن خالويه كتابا في (أسماء الأسد) ، وكتابا في (أسماء الحية)، ذكر أمثلة من ذلك (العسل) له ثمانون اسماً ، أوردها صاحب (القاموس) في كتابه الذي سماه : (ترقيق الأسل لتصفيق العسل)[20].

والعجب كل العجب من أولئك الذين يشكون من فقر اللغة العربية ، وعجزها عن مواكبة العصر ، والتطور العلمي الهائل ، ولله در الشاعر العربي حافظ إبراهيم ، الذي قال على لسان العربية :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي= ونـاديـت قومي فاحتسبت حياتي

رَمَـوْنـي بعقم في الشباب وليتني= عقمت فلم أجزع لقول عداتي

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية= وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة= وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن= فهل ساءلوا الغوّاص عن صَدَفاتي

من حياة النبي صلى الله عليه وسلم

الرحمة المهداة والنعمة المسداة

المتأمل في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وسيرته يجد أنه أعطى الطفل نصيبا من وقته، وجانبا كبيرا من اهتمامه، فكان - صلى الله عليه وسلم - مع الأطفال أبا حنونا، ومربيا حكيما، يداعب ويلاعب، وينصح ويربي ومع كثرة همومه وشدة اشتغاله - صلى الله عليه وسلم - بأمور الجهاد والدعوة والعبادة وأمور الناس إلا أنه كان يلاطف أطفال الصحابة، ويدخل السرور عليهم - وهو مَنْ هو - صلى الله عليه وسلم - في علو منزلته وعظم مسؤولياته .. ومواقف النبي - صلى الله عليه وسلم - التي تبين مدى حبه ورحمته بالأطفال كثيرة، منها مداعبته وملاطفته لعُمَيْر - رضي الله عنه -.

عن أنس - رضي الله عنه - قال: (كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - أحسبه قال: كان فطيما -، قال: فكان إذا جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرآه قال: يا أبا عمير، ما فعل النغير -طائر صغير كالعصفور-؟ قال: فكان يلعب به) رواه مسلم .

وعمير هو أبو عمير بن أبي طلحة الأنصاري، واسمه زيد بن سهل، وهو أخو أنس بن مالك لأمه، وأمهما أم سليم، مات على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم وفي هذا الموقف النبوي مع عمير - رضي الله عنه - الكثير من الفوائد التربوية التي ينبغي الوقوف معها والاستفادة منها، وقد سبق إلى التنبيه على فوائد قصة أبي عمير: أبو حاتم الرازي أحد أئمة الحديث وشيوخ أصحاب السنن، ثم تلاه الترمذي في « الشمائل »، ثم تلاه الخطابي وغيرهم ..

وقال ابن حجر : « قال أبو العباس الطبري : وفيما روينا من قصة أبي عمير ستون وجها من الفقه والسنة وفنون الفائدة والحكمة » .

ومن هذه الفوائد :

- تواضع النبي - صلى الله عليه وسلم - ولين جانبه، وحُسن مخالطته ومعاشرته لصاحبه أنس - رضي الله عنه - وأخيه الطفل الصغير، فنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو سيد الخلق، وخاتم الرسل، وأعلى الناس مكانة في الدنيا والآخرة، وهو أيضا - صلى الله عليه وسلم - أشد الناس تواضعا لله تعالى، ولا يملك من يقرأ سيرته، ويطلع على أخلاقه ومواقفه إلا أن يمتلئ قلبه بمحبته، فالناس مفطورون على محبة المتواضعين وبغض المتكبرين ..

- التلطف مع الصديق صغيرا كان أو كبيرا، والسؤال عن حاله، ومداعبته - صلى الله عليه وسلم - للصغار، والمزاح معهم وإدخال السرور عليهم، ومعلوم لدى التربويين أن الاهتمام والسؤال عن الصغار، ومعرفة أخبارهم، يوجد عندهم الاعتداد بالنفس، ويساعد ذلك في تكوين شخصيتهم، وبلورتها وصقلها، وكذلك يدخل السرور والحب في نفس الطفل وأهله، ويعتبر ذلك سلوكا تربويا ودعويا .

- التكنية وهي ما صُدِّرت بأم أو بأب تجوز، ولو لم يولد لمن كُنِيَ وَلد، لأن هذا الطفل صغير، وقد كناه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ولذلك ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري كتاب الأدب باب: (الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل) .

- جواز لعب الصغير بالطير، وإمساك الطير في القفص، أما إذا حُبِسَ وأوذي ولم يُطعَم فمعلوم حديث المرأة التي حبست قطة فدخلت النار بسببها، فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) رواه مسلم .

وكذلك ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أبيح به اللعب، وإنفاق المال فيما يتلهى به الصغير من المباحات دون إيذاء أو إسراف، ولذلك قال ابن تيمية: « يرخص للصغار ما لا يرخص للكبار، لأن طبيعة الصغار اللهو » ومن بين الأدلة على ذلك هذا الحديث .

- تصغير الاسم لا بأس به إذا كان المقصود المداعبة والتلطف لقوله (يا أبا عمير) تصغير عمر .

- جواز السجع في الكلام إذا لم يكن مُتكلفا، وأن ذلك لا يمتنع من النبي كما امتنع منه إنشاء الشعر .

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القدوة والأسوة الذي يجب أن يقتدي به الآباء والدعاة والمربون في تربيتهم ودعوتهم، ولا شك أن حياته وسيرته - صلى الله عليه وسلم - مليئة بالمواقف الجديرة بالوقوف معها من المصلحين والتربويين، لاستخراج فوائدها ودروسها، والتعامل من خلالها مع الصغار والكبار والناس أجمعين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:21) ..

من أدعية الأنبياء

دعاء نبي الله نوح عليه السلام:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [سورة نوح: 28].

دُعاء نبي الله مُوسَى عليه السَّلامُ:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص: 21].

دعوة نبي الله يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء:87-88].

دُعاءُ نبي الله أيُّوب عَلَيْه السَّلامُ:

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 83].

دعاء نبي الله لوط عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 30].

دعاء نبي الله سليمان عليه السلام:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة النمل: 19].

دعاء نبي الله يوسف عليه السلام:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [سورة يوسف: 101].